﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩﴾ [التحريم: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا لم ينفعهم التَّذكير، ولا ما حذَّر النَّذير شرَّع جهادهم القدير

لمّا كَشف الله ﷻ في الآيات السّابقة عن مصير الكافرين، وأبان عن عذابه المُعدّ لهم في الآخرة، تصريحًا بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾، وتلميحًا بما أعدَّه للمؤمنين من كرامة ونور بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ - أُتبع ذلك بتكليف النَّبيِّ ﷺ، بجهاد أعداء الله من الكفّار والمنافقين، أولئك الَّذين لم تنفذ إلى قلوبهم الموعظة، ولم تُحرّك أفئدتهم مشاهدُ الوعيد الأخرويِّ بقوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: فلمّا استغلق عليهم باب الانتفاع بالتَّذكير، كان لا بدّ من جهادٍ يوقظهم، وسيفٍ يَرْدَعُهم، رجاءَ أن تُثمر رهبة العاجلة ما لم تُثمره خشية الآجلة، فيرجعوا إلى الحقِّ بعد عناد، وتلين قلوبهم بعد قسوة، ويثوبوا إلى رشدٍ طال عنه المدى[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَٰهِدِ﴾: تَدُلُّ تَصريفاتُ الجيم والهاءِ والدّالِ على المشقَّة[2]، ويأتي بِمَعْنى الطّاقةِ والوُسْعِ، والمُجاهَدَةُ تُطلَقُ على استِفْراغ الوُسع في مُجالَدة العَدوِّ، وهو ثلاثةُ أضربٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظّاهِرِ، ومُجاهَدَةُ الشَّيطان، ومجاهدةُ النَّفس[3]، ولِما في ذلك مِنَ المشقَّةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 371، 372.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهد).
(3) الرّاغب، المفردات: (جهد).

على النُّفوس، ومادَّة (جَهدَ) حيثما وُجِدت، ففيها معنى المبالغة[1]. والمعنى هُنا: ابذل جهدك ووسعك في مغالبة الكفّار والمنافقين ومُدافعتهم بالمال والعلم أو الدَّعوة والقتال[2].

2) ﴿وَٱغۡلُظۡ﴾: تدلُّ اشْتِقاقاتُ الغَيْنِ واللّام والظّاءِ على عِظَم الجِرْم وتَجَسُّمِه مع صَلابَةٍ، ويدلُّ لازِمُهُ على الشِّدَّةِ والقوَّة[3]، وأصْلُ الغِلْظَةِ اسْتِعْمالُها في الأجْسام، وقَدْ تُسْتَعْمَلُ لِلمَعاني، كقَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التّوبة: 123]، أي: خُشونَةً[4]، والغِلْظَةُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، هي الشِّدَّةُ البالِغَةُ مَعَ الحِدَّةِ. والمعنى هُنا: اشْدُدْ وطْأتكَ على كلا الفريقين بالقول و الفعل و لاتعاملهم باللّين[5].

3) ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾: تَدورُ تصريفاتُ الهَمْزَةِ والواوِ والياءِ على مَعْنَيَيْنِ؛ هُما: التَّجمُّع، والإشْفاقُ[6]، ومِنَ الأوَّلِ: التَّأوّي؛ وهو التَّجمُّع، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلَى بعضٍ[7]. والمَأْوى: المكانُ الَّذي يُنْصَرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[8]، ليلًا أو نهارًا، وقد أوى فلان إلى منزله يأوي أويًّا، على فُعولٍ، وإواءً، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: 43][9]، والمعنى هنا: ومسكنهم ومكثهم ومصيرهم جَهَنَّمُ الَّذي يَصيرونَ إلَيْهِ[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُنادي اللّه تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ، مُكلِّفًا إيّاهُ بالجهاد، فيأمره أن يجاهد الكافرين المحاربينَ بالسَّيف، وغيرَ المحاربينَ منهم بالحُجَّةِ والمَوعظة، وأن يجاهد المنافقين بالسَّيف إن أظهَروا كُفْرَهم، وبالحُجَّةِ لرَدِّ شُبُهاتِهم، وأن يكون شديدًا عليهم في القول والعمل، فإنَّهم إن تمادَوا في كفرهم ونفاقهم، فمصيرهم المحتوم في الآخرة هو نار جهنَّم، وما أسوأ ذلك المصير مرجعًا ومآلًا[11].

(1) البعليّ، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 247.
(2) الطَّبراني، التفسير الكبير: 6/ 307، وعبد المنعم تعليب، فتح الرحمن: 7/ 3711، والمكي، المعين على تدبُّر الكتاب المبين: 1/ 561.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلظ).
(4) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(5) الدينوري، تفسير ابن وهب: 2/ 421، والجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 389.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(7) الخليل بن أحمد، العين: (أوى).
(8) ابن أبي نصر الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (أوا).
(10) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 497، والمنصوري، المقتطف: 5/ 278.
(11) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 497، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 201، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 874.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ النِّداء والتَّوكيد والتَّنبيه:

الإشـــارة إلى جـلال المخاطَب وخـطـورة الأمـر المُلقى إليه

من دقائق البيان وروائع التَّنزيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، إذ ابتدأ الحق ﷻ خطابه الجليل بصيغة النِّداء، وهي صيغة تليق بجلال المخاطَب وخطورة الأمر المُلقى إليه، فقد صدَّر النِّداء بأداة الإقبال (يا)، ثُمَّ أعقبه بـ (أيُّها)، وهي نكرة مقصودة، لا يتجلَّى معناها إلّا بما يتلوها من بيان، فكان في ذلك تدرّجٌ من الإبهام إلى الإيضاح، ومن التَّعميم إلى التَّخصيص، تقويةً للمعنى، وإحكامًا للخطاب[1].

تـوكـيـد الـنِّـداء السّابق

ثُمَّ زُيّن هذا النِّداء بـ(ها) التَّنبيه، فاجتمع فيه نداءان: أحدهما يدعو السّامع للإصغاء، والآخر يُنبّهه إلى خطورة ما يُلقى إليه، فكان التَّوكيد فيه مُضاعفًا، والبلاغةُ فيه محكمةَ البناء، دالَّةً على أنَّ ما بعده من الأمر ليس من قبيل الخطاب العادي، بل هو تكليف جليل، ومقام عظيم، ألا وهو جهاد الكافرين والمُنافقين[2].

دلالة (أل) في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾:

توكيد خصوصيَّة النَّبيِّ في مقام التَّكليف والوحي

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، جاءت (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ للعهد، وقد انقسمت دلالتها بَيْنَ وجهين، كلاهما يُجلّي خصوصيَّة الخِطاب وسُموّ: فهي إمّا للعهد العلميِّ، والمُراد به النَّبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، أو هي للعهد الحضوريِّ، أي أنَّ المخاطب هو النَّبيُّ الحاضر حين التَّنزيل، ولا نبيَّ في الأرض ساعة نزول الآية سواه ﷺ، فينصرف الذِّكر إليه دون غيره. وهذان الوجهان مُتقاربان، يجمعهما كون الخطاب مُخصَّصًا برسول الله ﷺ، وموجَّهًا إليه وحده، دلالة "أل" في السّياق لتوكيد خصوصيَّة النَّبيِّ في مقام التَّكليف والوحي[3].

(1) ابن عطيَّة الأندلسي، المُحرَّر الوجيز: 5/ 334، والزُّحيلي، التَّفسير الوسيط: 3/ 2692.
(2) ابن فرس الأندلسي، أحكام القرآن: 3/ 591.
(3) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 24.

فائدة ندائه ﷺ، بوصف النُّبوَّة دونَ الاسم:

إظهار مقام النبيّ الرَّفيع عند ربِّه، وإعلاء قدر منزلته بَيْنَ الأنبياء

من أساليب القرآن الكريم البليغة، وطرائقه الرَّفيعة في خطاب النَّبيِّ ﷺ، أنَّه لم يُنادِه باسمه العلم مُجرَّدًا قَطُّ، فلا تجد في التَّنزيل: (يا مُحمَّد)، كما خوطب غيره من الأنبياء بـ: (يا آدم)، و(يا موسى)، و(يا عيسى)، بل جاء النِّداء مقرونًا بوصف النُّبوَّة أو الرِّسالة، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ و﴿*يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41]، وهذا من دلائل التَّشريف وعُلوِّ المنزلة، إذ خُصَّ النَّبيُّ ﷺ، بالنِّداء بصفته الجليلة، دون اسمه، إظهارًا لمقامه الرَّفيع عند ربِّه، وإعلاءً لقدر منزلته وفضله بَيْنَ الأنبياء[1].

وفي ذلك أيضًا تعليمٌ للأمَّة أدبَ الخطاب مع نبيِّها، وأنَّه لا يُخاطَب كما يُخاطَب سواه، بل يُعرَف ويُذكر بصفاته الَّتي شرَّفه الله ﷻ بها، كما في مطلع هذه السّورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾، فجمع الخطاب بَيْنَ التَّكريم والتَّأديب، وبَيْنَ التَّشريف والتَّعليم[2]. خاطبه بهذا الوصف، ليدل على فضله عليهم وهذا ظاهر.

سرّ ندائه ﷺ، بوصف النُّبوَّة دونَ الرسالة:

وعبّرَ بوصف النُّبوّة الدَّالّ على الرِّفعة بالإعلام بالأخبار الإلهيَّة المبنيِّ على الإحكام والعظمة المثمرة للغلبة، وأمَّا وصف الرِّسالة فيغلب فيه الرَّحمة فيكثر إقباله على اللِّين والمسايسة[3].

دلالةُ تَخصيص النَّبيِّ بِالخطاب بلفظ ﴿جَٰهِدِ﴾:

تَخصيص النَّبيِّ وتشريفه بالخطاب؛ لأنَّه المُبلِّغ عن ربِّه، وقائدُ أمَّته، ورائدُها

جاء نداء الله ﷻ لنبيِّه الكريم ﷺ، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ على وجهٍ يُسمِع الأمَّة جمعاء، وإن كان ظاهرُه توجيهًا خاصًّا للنَّبيِّ الكريم، إذ المقصود بالخطاب في جوهره هو مجموع الأمَّة، تنبيهًا لهم أنَّهم

(1) الرّازي، تفسير الفخر الرازي: 30/ 574.
(2) عبد الملك قاسم، عقد الجمان: 1/ 1209.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 20/ 206.

معنيّون بما أُمر به نبيُّهم، داخلون في دائرة التَّكليف، مُطالَبون بتحقيق مُقتضاه. فاختُصَّ النَّبيُّ ﷺ، بالخطاب تشريفًا وتكليفًا؛ لأنَّه المُبلِّغ عن ربِّه ﷻ، وقائدُ أمَّته، ورائدُها في مقام الجهاد والدَّعوة، فالأمر في قوله ﷻ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وإن وجِّه إليه ﷺ، إلّا أنَّه محمول على العموم، يشمل جميع المؤمنين؛ لأنَّ الصِّراع مع الكُفر والنِّفاق ليس أمرًا شخصيًّا، بل هو معركة كبرى يَتطلَّب من الأمَّة بأسرها أن تشحذ قواها، وتُجمّع طاقاتها، لنُصرة الحَقِّ ودفع الباطل[1].

نُكتة التَّعبير بالفعل ﴿جَٰهِدِ﴾ مادَّة وصيغة:

الإيماء إلى عِظم المُهمَّة، وتنوُّع صورها، وتشعُّب سُبلها

اختار النَّظم الكريم لفظ ﴿جَٰهِدِ﴾ دون (قاتل)، لِما في ذلك من إيماء إلى عِظم المُهمَّة، وتنوّع صورها، وتشعّب سُبلها، فالجهاد أوسع ميدانًا من القتال، وأعمُّ من أن يُقصر على حمل السِّلاح، إذ يشمل بذل الجهد الَّذي يكون بمُقاتلة الكافرين، ومُجادلة المنافقين - الَّذين ارتضوا الغدر - بالحُجّة والبيان، ومُنازلة الباطل بكُلِّ وسيلة مَشروعة. ولذا جاء اللَّفظ بصيغة المُفاعلة، إشارة إلى أنَّ المُجاهِد سيُلاقي من خصومه - الكفّار والمنافقين - من المقاومة والعناد والمكر، ما يستوجب مُضاعفة الجهد، واستفراغ الوسع، وبذل الطّاقة النَّفسيَّة والجسديَّة على حَدٍّ سواء إذ أصل المُجاهدة بلوغ الجهد في رضوان الله ﷻ[2].

بلاغة لفظة ﴿جَٰهِدِ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

الدَّلالة على الجهاد بالسَّيف والسِّنان واللِّسان والبيان

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، يرد سؤالٌ: كيف أُمر النَّبيُّ ﷺ، بجهاد الكافرين والمُنافقين، مع أنَّه قد قاتل الكافرين بالسَّيف، ولم يُعرف عنه أنَّه قاتل المُنافقين بنفس الصّورة؟.

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 479.

(2) النَّحاس، إعراب القرآن: 4/ 305، والرّازي، تفسير الفخر الرازي: 30/ 574، وعبد المنعم تعليب، فتح الرَّحمان: 7/ 3711.

والجواب: أنَّ جهاد المُنافقين لم يكن بالسِّلاح كما هو الحال مع الكُفّار، بل كان بالحُجَّة والبيان، كما دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾ [الفرقان: 52]، أي: جاهدهم بالقرآن، بالحُجج والبراهين، وبفضح كيدهم وإظهار نفاقهم؛ وذلك لأنَّ نفاقهم مُستتر لا يظهر، ولأنَّ النَّبيَّ ﷺ، كَفَّ عن قتلهم حتَّى لا يُقال: إنَّ مُحمَّدًا يقتل أصحابه.

وقد كان جهاده ﷺ، للمُنافقين أشدَّ وقعًا عليهم من السَّيف؛ إذ ألقى الله الرُّعب في قلوبهم، وجعلهم في خوف دائم، يحسبون كُلَّ صيحة عليهم، فَعَطْفُ ذكر المنافقين على الكافرين في الآية لا يقتضي بالضَّرورة المُساواة في نوع الجهاد، بل يُحمل لفظ ﴿جَٰهِدِ﴾ على معناه الأعمِّ، فيشمل القتال والرَّدَّ بالحُجَّة، والإيقاع بهم بما يَردعهم ويكفُّ شرَّهم من التَّخويف. كما أنَّ في التَّعبير ما يُشعر المُنافقين بأنَّ النَّبي ﷺ والمؤمنين لهم بالمِرصاد، فلا يجرؤ أحدهم على إظهار ما يُبطن، خشية أن يُعامل مُعاملة الكافر في حال افتُضح أمره، كما قال تعالى: ﴿۞لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠﴾ [الأحزاب: 60][1]؛ فاللَّفظ مُستَعْمَلٌ في حقيقته ومجازه.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾:

الألف واللّام في لفظَي ﴿ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ تُفيدان الاستغراق، أي: أنَّ الأمر بالجهاد موجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ، تُجاه جميع من اتّصف بالكفر أو النِّفاق، دون استثناء، فيشمل الخطاب كُلَّ صنوف الكافرين والمنافقين على اختلاف أحوالهم.

نُكْتَةُ تَقْديمِ ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ عَلَى (المُنَافِقِينَ):

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، جاء تقديم ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ على (المنافقين) لمناسبة المقام، إذ السّياق يتناول الأمر بالمُجالدة والمواجهة الحربيَّة، وهي ألصق بالكافرين الَّذين جاهروا بالعداوة، وصرَّحوا بالمُخالفة، فكانوا أولى بالابتداء في الذِّكر، لما اتَّصفوا به من شِدَّة البأس، وقوَّة المواجهة، فلمّا كان الكفّار أشَدَّ شَكيمَةً وأقْوَى

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 254، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 372.

أسْبابًا في القِتالِ، وأقوى عُدّة، وأصلَبَ عزمًا في ميادين القتال، لِتَصَدّيهم الصَّريح ومواجهتهم العلنيَّة، قدّمهم الله تعالى في الخطاب ثُمَّ ثُنّي بالمُنافقينَ؛ لكونهم أخْوَفَ وأضْعَفَ نَفْسًا، وأهْوَنَ قَدْرًا، ولِذا فَإنَّهم لَم يَجْرُؤوا عَلَى إظْهارِ المُخالَفَةِ، فبَدَأ بـ ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾؛ لأنَّ جهادهم من الأمور المُسَلَّم بها؛ لكون جهادهم أمرًا ظاهرًا مُتَّفقًا عليه، بخلاف جهاد المُنافقين، الَّذي يقتضي فطنةً وبصيرةً[1].

تقديمهم لما اتَّصفوا به من شِدَّة البأس، وقوَّة المواجهة

دلالة عطف (المُنافقين) على ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾:

عُطف (المُنافقين) على ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ باستخدام واو المعيَّة، في إشارة بليغة إلى أنَّ جهاد الفريقين مُتلازمان في الأهمّيَّة، وإن اختلف ظاهر الحال، فالكُفّار يُهاجمون الأمَّة من ظاهرها، والمُنافقون ينخرونها من باطنها، وكلاهما يُشكِّلُ خطرًا داهمًا على بنيان الجماعة واستقرارها. وقد نُبّه في هذا العطف على ضرورة التَّيقُّظ لعدوٍّ الدّاخل، كما يُستعدُّ لعدوٍّ الخارج، فالمُنافقون خَطرهم خَفيٌّ، لا يَقلُّ شراسة عن عدوٍّ يرفع السَّيف جهرًا. ومن وجوه الحكمة في هذا العطف، ما ذهب إليه جمعٌ من أهل العلم، أنَّ فيه إلقاءً للرُّعب في قلوب المُنافقين، ليدركوا أنَّ النَّبيَّ ﷺ، والمؤمنين لهم بالمرصاد، وأنَّ نِفاقهم معلومٌ، وكيدهم مكشوف، فإذا بَدَرت منهم بادرة تفضح أمرهم، عوملوا معاملة الكُفّار، فيرتدعوا، ويكفّوا عن إيذاء المؤمنين خوفًا من الفضيحة والهلاك[2].

شُمول الجهاد، وتحقيق الرَّدع، والتَّهديد يُزلزل القلوب، ويكشف خبث النّيات

معنى الواو في قوله ﴿وَٱغْلُظْ﴾ ودَلالَتُها:

في قوله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: الزَم الشِّدَّة والخُشونة بالفعل والقول؛ بالتَّوبيخ والزَّجر والإبعاد والهجر[3] في معاملة

الغِلظة جزءٌ من الجهاد ومن لوازمه في مقام المُدافعة استدعاءً للهيبة والتَّأثير

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 463، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2181.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 372.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 20/ 206.

الفريقين الكُفّار والمُنافقين - بحسب ما يُناسب حالهم - سواء في ميدان القتال أو في مقام الحُجّة والمُحاجَّة. وقد جاء عطف الأمر بالغِلظة على الجهاد، للإشارة إلى أنَّ الغِلظة جزءٌ من الجهاد، بل هي لازمة في مقام المُدافعة، وخصوصًا مع من لا تنفع معهم الموعظة، ولا يستقيم لهم حالٌ بالرِّفق واللّين. فالواو في ﴿وَٱغۡلُظۡ﴾ تُفيد عَطْفَ أمْرٍ على أمْرٍ، مع ما فيه من الإشارة إلى تلازم المعنيين: الجهاد والغِلظة، في هذا السّياق الَّذي يقتضي الحَزم والقوَّة[1].

دلالة الأمر بالغِلْظة:

المقام لا ينفع فيه إلّا الشِّدة، ولا يُصلِح حالَ أهله إلّا الغِلظة

لم يأتِ الأمر بالغلظة في القرآن الكريم موجَّهًا إلى النَّبيِّ ﷺ، إلّا في موضعين، أحدهما في هذه الآية: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، والآخر في سورة التَّوبة، وقد جاء ذلك على وجهٍ خاصٍّ، عُطف فيه الأمر بالغِلظة على الجهاد، تنبيهًا على أهمّيَّته، وتوكيدًا لمقامه، لكونه يُخالف الطَّبيعة الَّتي جُبِل عليها النَّبيِّ ﷺ، من الرَّأفة والرَّحمة، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: 159]. فكان في هذا التَّوجيه الإلهيِّ تحوُّل مؤقّت عن سجيَّة اللّين إلى مقتضى الحزم، في مقام لا ينفع فيه إلّا الشِّدَّة، ولا يُصلح حال أهله إلّا الغِلظة، لا سيَّما إذا كان العدوُّ يُجاهر بالكفر أو يندسّ بالنِّفاق، فجهاد هؤلاء لا يكتمل إلّا بصرامة تُفزع، وزجر يردع، فكان لا بدّ من تغليظ الفعل والقول، وشِدَّة التَّخويف، وإظهار المصير المهول الَّذي ينتظرهم، لعلَّ في ذلك ما يردّهم عن غيّهم، أو يُخلي السّاحة من شَرِّهم. وفي الأمر بالغلظة، إشارة عظيمة إلى أنَّ الشِّدَّة على أعداء الله من مكارم الأخلاق، وأنَّ من كانت رحمته للعالمين، مأمورٌ بأن يغلُظ في مقام الحرب والعداوة، فإنَّ اللّين في غير موضعه ضعف، والرَّحمة في غير أهلها مهانة، وقد قال تعالى

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 570.

في وصف صحابة النَّبيِّ ﷺ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]، فالجمع بين الشِّدَّة والرَّحمة، بحسب موضعها، هو كمال الخُلُق ونهاية الحِكمة[1].

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿وَٱغْلُظْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، جاء التَّعبير بالغلظة على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، حيث نُقلت الغِلظة من معناها الحسّيِّ، وهو صلابة الشَّيء المحسوس وخشونته، إلى المعنى المعنويِّ، وهو الشِّدَّة في المُعاملة دون لين أو تسامح، فصوّرت المعاملة القاسية بصورة ملموسة تُحاكي الخشونة الجسديَّة، لِما في ذلك من تجسيدٍ للمعنى وتقوية للأثر. وهذه الاستعارة تمنح التَّعبير طابعًا قويًّا، يُلقي في نفس السّامع إحساسًا بالشِّدة المرهوبة، ويُضفي على الأمر بالجهاد بُعدًا نفسيًّا يُرهب القلوب المريضة بالكفر والنِّفاق، ويُشعرهم أنَّ الرَّحمة هُنا مَوْؤودَةٌ، وأنَّ الحزم قد بلغ مداه، في إقامة الحقِّ وصدّ الباطل[2].

الأمـر بالجهاد يُرهب القلوب المريضة بالكفر والنِّفاق

نُكتة تعدية فعل الغِلظة بحرف الاستعلاء:

من لطائف التَّعبير في قوله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، تعدية الفعل (اغلظ) بحرف الجَرِّ (على)، الدّالِّ على الاستعلاء، وفي ذلك إشارة بلاغيَّة رفيعة، إذ يُصوَّر أثر الغلظة كأنَّه يعلو عليهم ويُطبق على نفوسهم، فيتمكَّن منهم كما يتمكَّن الرّاكب من جواده، وهي مُبالغة في تصوير وقع الشِّدَّة عليهم، وتقوية للاستعارة السّابقة بتحويل الغلظة من معنى معنويٍّ إلى هيئة حسّيَّة تُحسّ وتُرهَب، وتكون رادعة لهم عن التَّمادي في الكفر والنِّفاق، ومانعة من الإضرار بالصَفِّ المؤمن أو تهديد وحدته[3].

الغـلـظـة تـردع الـتَّـمـادي في الكفر والنِّفاق، وتمنع الإضرار بالصَفِّ المؤمن

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 67، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2181.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 373.

(3) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2181.

معنى الواو في قوله ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾:

بيان آجل حالهم، بعد بيان عاجله

لمّا كان انتقام أولياء الله من أعدائه لا ينبع من هوى النَّفس أو رغبة شخصيَّة، بل هو خالصٌ لوجه الله تعالى، لم يكن هذا الانتقام الدُّنيويُّ كافيًا في حقّ أولئك الأعداء؛ إذ لا يستحقّون حُرمة ولا مكانة، مهما بدتْ عليهم مظاهر القوَّة والعظمة في الدُّنيا، فجاء التَّهديد الإلهيُّ واضحًا بقوله: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لبيان أنَّ مآلهم في الآخرة هو العذاب الأشدُّ، والنّار العظيمة، وقد افتُتحتِ الجملةُ بـ(الواو) الاستئنافيَّة، تنبيهًا على أهمّيَّة هذا المصير، وما يحمله من معانٍ عظيمة تُعزِّز الأمر بجهاد الكافرين والمُنافقين، والتَّشديد عليهم، فالجُملة تُظهر العاقبة الأخرويَّة، بعد بيان الحال في الدُّنيا؛ لتبعث في المؤمنين مزيدَ حماسٍ للجهاد، وتؤكِّدُ أنَّ ما ينتظر أعداء الله في الدّار الآخرة هو أشدُّ وأنكى ممّا يُصيبهم في الحياة الدُّنيا[1].

بلاغة تقديم المأوى على جهنَّم:

التَّوكيد على شناعة مصير الكافرين والمنافقين، وسوء عاقبتهم

قُدّمَ لفظ المأوى على جهنَّم؛ لأنَّ المأوى لفظ عامٌّ يشمل كُلَّ مُستقرٍّ، أمّا جهنَّم فلفظ خاصٌّ، فاقتضى السّياق تقديم العامِّ على الخاصِّ لإفادة القصر والحصر، أي: لا مأوى لهم ولا مُستقرَّ غير النّار، وفي هذا الأسلوب البلاغيِّ توكيدٌ عظيم على شناعة مصيرهم، وسوء عاقبتهم، إذ ليس لهم مأوى يأوون إليه يوم القيامة إلّا جهنَّم، ولا قرار لهم إلّا في العذاب المقيم[2].

بَلاغة الاستِعارَة التَّهَكُّميَّة في: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾:

ذِكْرُ المأوى أبلغ في تقريع الكافرين والمنافقين وتهديدهم

لفظ (المأوى) في أصله يَدلُّ على المكان الَّذي يقصده الإنسان

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 207، والمهائمي، تفسير المهائمي: 3/ 427، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 12/ 79.

(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2182.

طلبًا للسَّكينة والاستقرار، حيث يجد فيه الرّاحة والأمان، بيد أنَّ التَّعبير القرآنيَّ في قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ قد عبّر بهذا اللَّفظ في موضع العذاب، فجعل جهنَّم مأوى لهم، وهذا من الاستعارة التَّهكُّميَّة البليغة، حَيْثُ أُطلق اللَّفظ بما يُفهم منه المدح، وهو في حقيقته ذمٌّ شديد، فالتَّعبير يوحي في ظاهره بمكان إيواء، لكنَّه في الحقيقة مكان للعذاب والهوان والخلود في النّار، وهذا أبلغ في تقريعهم وتهديدهم، فذِكْرُ المأوى في هذا المقام تهكُّم عليهم، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21].

معنى الواو في قوله ﴿وَبِئْسَ﴾:

الهوان والذِّلّة والصَّغار منزلة الكافرين والمنافقين عند الله تعالى

عُطفت جُملة الذَّمِّ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ على ما قبلها، كنايةً عن مدى ذُلِّهم وحقارة شأنهم وخِسَّة منزلتهم عند الله تعالى، وفي ذلك قطعٌ لِكُلِّ رجاء في هدايتهم، وسَدٌّ لباب الطَّمع في إيمانهم؛ إذ إنّ احتمال توبتهم لو بقي قائمًا، لربّما استدعى شيئًا من اللّين والرِّفق، وهو ما لا يتناسب مع الأمر الإلهيِّ بالجهاد المقرون بالغلظة والشِّدَّة، فجاء هذا الذَّمُّ ليحسم الموقف، ويُغلِق باب الملاينة معهم تمامًا[1].

نُكْتَةُ الجَمْعِ بَيْنَ المأوَى والمصير:

التَّوكيد على فظاعة عاقبتهم وشِدَّة خُسرانهم

في قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، جاء الجمع بَيْنَ المأوى والمصير مع أنَّ كليهما يُشير إلى المرجِع والنِّهاية، لكن بينهما فرق دقيق في الاعتبار: فالمأوى يُقصد به مكان الإقامة والاستقرار، والمصير يُراد به ما يصير إليه الإنسان ويرجع إليه في نهاية أمره، فجُمع بين اللَّفظين للتَّفنُّن في التَّعبير[2]، وللتَّوكيد على فظاعة عاقبتهم وشِدَّة خُسرانهم، من حيث البداية والنِّهاية، والاستقرار والمآل.

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2182.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/ 267.

مصيرُ الكافرين والمنافقين في جَهَنَّمَ أبديٌّ، وعذابُهم لا يُخَفَّفُ ولا ينقطع

وقد يُطرح هنا سؤال: إذا كان قوله ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ يدلُّ ضِمنًا على أنَّ مصيرهم سيِّئ، فما الحاجة إلى التَّصريح بقوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؟.

والجواب: أنَّ التَّعبير بـ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ جاء بصيغة مُطلقة، والمُطلق يدلُّ على الدَّوام والثَّبات، أمّا ذكر المأوى وحده فقد يُفهم منه مقام مُؤقَّت أو جزئيٌّ، فجاءت جُملة الذَّمِّ التَّذييليّة لتُزيل كُلَّ احتمال للتَّخفيف، وتُثبت أنَّ مصيرهم إلى جهنَّم أبديّ، سيِّئ مطلقًا، لا يُخفَّف ولا ينقطع[1].

نكتة حذف المخصوص بالذَّمِّ:

المُبالغة في التَّهويل على وجه يزيد من قوَّة الذَّمِّ وهول العاقبة

المخصوص بالذَّم في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه السّياق، وهو إمّا (جهنَّم) أو (المأوى)، كما في قوله: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾، وحَذفه اعتمادًا على ما تقدَّم، لظهوره من السّياق، وليكون في الحذف مُبالغة في التَّهويل؛ ليُترك للمخاطَب أن يتصوّر بشاعة المصير دون أن يُصرّح به مُباشرة، لما في ذلك من شِدَّة الإيقاع في النَّفس. وفيه أيضًا تصريحٌ باللّازم، وتوكيدٌ لِما عُلِمَ ضِمنًا، على وجه يزيد من قوَّة الذَّمِّ وهول العاقبة[2].

سِرُّ العدول من ذِكْرِ المأوى إلى ذِكْرِ المصير:

التَّوسعة في المعنى، والتَّوكيد على شناعة العاقبة

يكمن وجه البلاغة في العدول عن المشاكلة اللَّفظيَّة؛ إذ لم يقل: (وبئس المأوى) موافقةً لما سبق من قوله: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾، بل قال: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ وذلك لأنَّ (المصير) أعمُّ من (المأوى)، فالتَّعليق على الأعمِّ يُفيد توكيد الحكم على الأخصِّ ضمنًا، فإذا ثبت سوء المصير - وهو يشمل كُلَّ مرجع ومآل - فإنَّ سوء المأوى، وهو جزء منه، يكون ثابتًا بطريق أولى، وفي هذا توسعة في المعنى، وتوكيد لشناعة العاقبة[3].

(1) الرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 574، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 19/ 214.
(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 482، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 480.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 254.

بَراعَةُ التَّذييل بقوله تعالى ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

مَـن يُغلق باب الأمل أمامه فلا طيب لحياته، ولا راحة لمقامه

قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ جاء تذييلًا لما سبقه من قوله: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾، ليُرسّخ في الأذهان حقيقة الجزاء، ويُقرّره على وجهٍ يزيد في شِدَّة الوعيد، ويُغلق باب الأمل أمام من استحقّوا هذا المصير، فلا طيب لحياتهم، ولا راحة لمقامهم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ [الفرقان: 66]. وقد ورد هذا التَّعبير القاطع عَقِبَ ذِكْرِ الجِهاد والغلظة، ليُفهم منه أنَّ عذابهم ليس مقصورًا على ما ينالهم في الدُّنيا من السَّيف والشِّدَّة، بل هو عذاب مُضاعف، حاضر في الدُّنيا، مُؤجَّل في الآخرة، حيث لا مأوى إلّا جهنَّم، ولا قرار إلّا في النّار، فجاءت الآية بخاتمة مُحكمة، تقطع كُلَّ رجاء في رحمة لهم، وتُعلن أنَّ الخزي لازمهم في الدّارين.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المأْوَى والمثْوَى:

(المأوى) أوسع دلالة من (المثوى)؛ لأنّ المثوى يُشعر بالإقامة، في حين أنّ المأوى لا يقتضي ذلك بالضَّرورة؛ فقد يُستعمل في معنى اللُّجوء المؤقَّت، أو السَّكن العارض، دون اشتراط الإقامة فيه ولهذا يُقال: "آوى إلى مكانٍ" ولو لفترة وجيزة[1]؛ ولذا جاء في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ: "انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا المَبيتَ إِلَى غارٍ"[2] – في القصَّة المشهورة –، فعبَّر عن مَبيتِهم العارِضِ في غارٍ بالإيواءِ.

ثمَّ إنَّ الإقامة وإن دلّ عليها لفظ (المأوى) أحيانًا، إلّا أنَّها تختلف في طبيعتها عن الإقامة الَّتي يُفهمها لفظ (المثوى)؛ فالإقامة في المأوى قد تكون طويلة، لكنَّها لا تدلُّ بالضَّرورة على الدَّوام

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/ 301، ومحمّد الأمين الهرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 5/ 222.
(2) رواه البخاري برقم: (2272) واللَّفظ له، ومسلم برقم: (2743).

والاستقرار التّامِّ، بخلاف المثوى، فإنَّها تفيد مقامًا دائمًا، واستقرارًا نهائيًّا لا انصراف عنه[1]، فالمأوى قد يُقيم فيه المرءُ إقامةً طَويلَةً، ولكنَّ المثوَى يقتضي الإقامة الدّائمةَ[2].

وقد جُمِعَ بين المَأْوَى والمَثْوَى في آيةٍ واحدةٍ، وهي قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران: 151]، وهو يؤيِّدُ أنَّ في المثوى أمرًا زائدًا على المأوَى، ففي ذِكْر المَثْوَى بعد المأوى إشارةٌ إلى خُلودِهِمْ، ولذا قُدِّم المأوى؛ بالنَّظر إلى التَّرتيب الوجوديِّ؛ فإنَّ الكافرَ يأوي ثُمَّ يَثْوي[3].

(1) زيدان، الفروقُ اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 167 - 168.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/ 1450.
(3) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/ 352.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والستون،
سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 62 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-640-02-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 62 : المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-640-02-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5378070 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"